د. عزيز إفزارن
... ولا حرج!

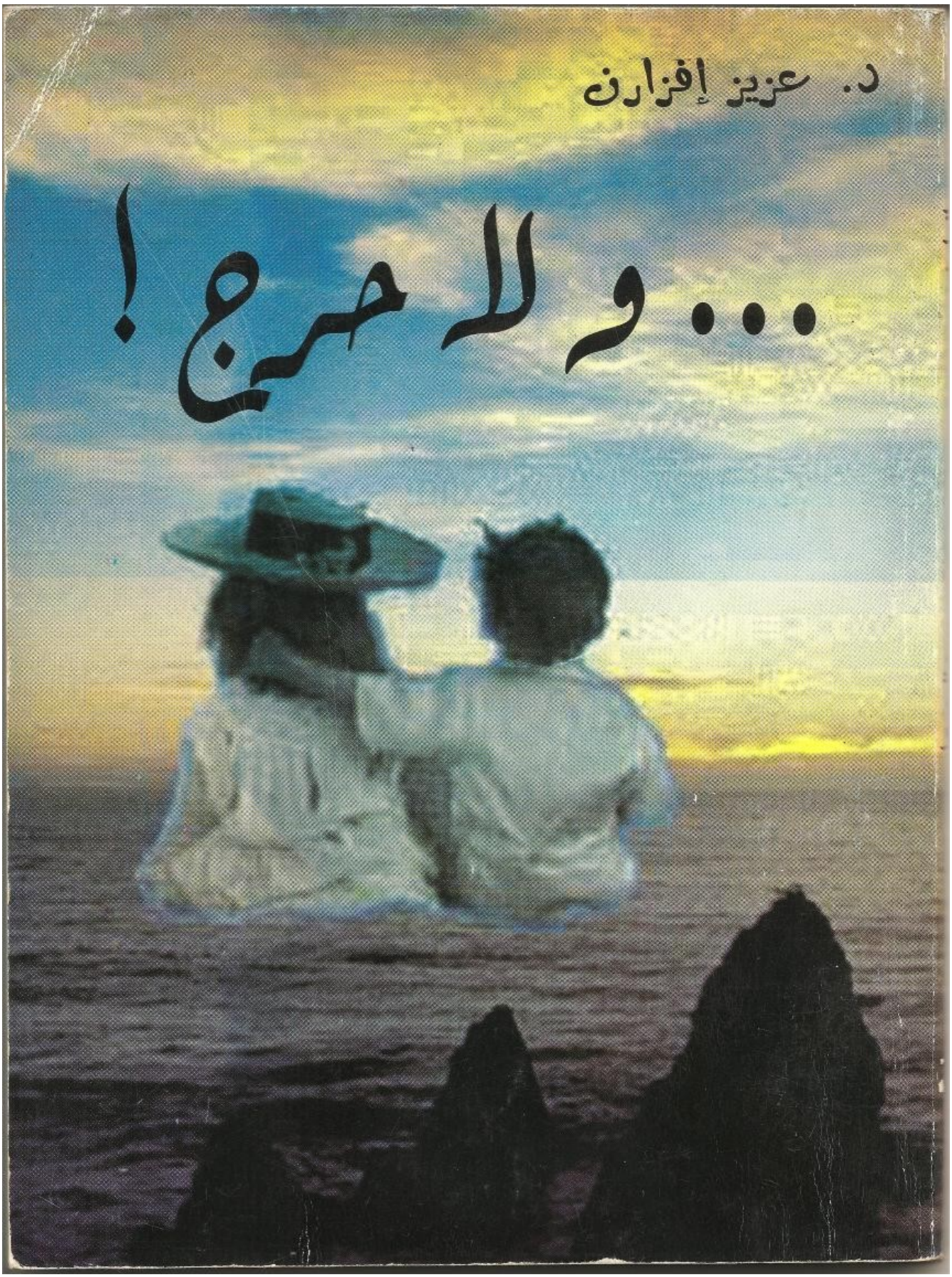

... و لا حرج!

د. عزيز إفزارن

الطبعة الأولى : يناير 2004

الإيداع القانوني : 0115/2004

ر د م ك : 2-8-8268-9954

جميع الحقوق محفوظة

دار إفزارن للطباعة والنشر، زنقة ابن حزم، حسنُونة

طنجة ـ المغرب. هاتف : 039 336909 (212+)

فاكس : 039 937131 (212+)

Email: ifzarne@maktoob.com

.....

بريد المؤلف :

Email: azizifzarne@gmail.com

إهداء

إلى كُلِّ عقلٍ حرّ..

يمتلك جُرأة السُؤال في عُمق الأجوبة الجاهزة..

قادر على فتح باب الحوار في كُلّ الأمور..

بهدوء.. دون تعصُّب.. دون خوف..

ودون خطوط حمراء!

يا رفــيــقي أنا لولا أنتَ مــا وقّــعتُ لحْنا

ما لِصوت أُغلقتْ مِن دُونه الأسـمـاعُ معنى

هذه أصـــداءُ روحي فلْتكُن روحُك أُذنا

إن تجدْ حُسناً فخُذْهُ واطْرَحْ ما ليس حُسنا

إيليا أبو مَاضي

الحقيقةُ العارِية!

« قال العُقوق : غَطُّوني بورق التِّين

وقال الشر: أَلبِسوني ملابس الخير والصلاح

وقالت الرذيلة : زيِّنوني برِداء الفضيلة

وقال الخداع: ضعُوا تاج الأمانة على رأسي

وقالت الكراهية : ألبسُوني ملابس الحب

وقال الظلم: أَعطوني صولجان التسامح

وقال الاستبداد: ألبسوني رداء الحرية

وقال الإهمال: جمِّلوني بثوب الواجب

وقالت الكبرياء: ألبسوني رداء التواضع

وعند ذلك قال الحق: اتركوني عريانا . .

فأنا لا أخجل! »

الشاعر الإنجليزي روبنسون

«اترُكُوني عريانا فأنا لاأخجل!» هذا ماقاله الحق.. فالحق ليس لديه ما يُخجِله.. و ليس عنده ما يُخْفيه!

في عالم البشر.. لا أحد يُجسِّد الحق بِكُلِّيته.. مادام لن يكون على حق في كل شيء.. ولكن هناك إنسان لديه الحق في قضية معينة. المظلوم والمهمش وكل من سُلبت منه أدنى حقوقه البشرية له كل الحق إذا طالب بهذه الحقوق.. وهو في أغلب الأحيان سيُعتبر في نظر أصحاب المسؤوليات الكبرى محرضا على الشغب والفتنة وخارجا عن القوانين.. لأن هؤلاء قد لايهمهم واقع الأغلبية الكادحة قدر

اهتمامهم بالحفاظ على مصالحهم مناصبهم.

ومع ذلك.. فالحقيقة عارية!

مَشاهد المُتسولين والعاطلين واللصوص والمُومسات والأطفال المشردين.. كلها مشاهد عارية صريحة لازيف فيها ولاكذب.. مشاهد بَشَر لا يعيشون حياة البشر.. هي موجودة سواء تحدث عنها الإعلام أو تجاهلها.. تُلاحقنا كل يوم.. لتشهد أن الأمور ليست على مايرام.. هناك عطب.. بل أعطاب تضرب جذورها في الأعماق.. ولابد لها من حلول تضرب أيضا جذورها في الأعماق! الضباب لا ينقشع بالمروحة.. و الحلول الترقيعية لم تعد مجدية.

قبل هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية.. كانت الصحف والإذاعات الداخلية تثرثر بقيادة وزير الدعاية «جُوبلز» بالنصر والقوة والأحوال المزدهرة للبلاد في وقت كان فيه الشعب الألماني يتخبط في الحرب المهولة والفقر

المدقع.. فكانت الهزيمة ضربة قاضية أفقدت إعلام السلطة كل مصداقية لدى الشعب المقهور.

لقد مَلَّ الناس من إعلام «العام زين».. فقدوا فيه كل ثقة ومصداقية.. بل صار مَدعاةً للسُّخط والسخرية. كيف نأمل في تغيير واقع رديء إذا كنا نقدمه بشكل مزيف.. إذا كنا نخجل من مواجهة نفوسنا أمام المرآة؟

و تبقى الحقيقة عارية!

الفقر والبطالة والأمية حقائق عارية.. التسوُّل حقيقة.. دُورالبؤس و الصفيح حقيقة.. الدَّعارة حقيقة.. الطفولة المشردة وصْمة عار على جبيننا جميعا.. هذه الفوارق الطبقية الهائلة التي تماثل الفرق بين السماء والأرض حقيقة مُجردة من ثيابها الخارجية والداخلية.. الرشوة حقيقة.. موت البُؤساء على أبواب المستشفيات لعجزهم عن أداء تكاليف العلاج حقيقة.. أشكال التعذيب الهمجي التي

لازالت تُمارس في ضيافة بعض السجون وأقسام البوليس حقيقة .. حرية الفكر والتعبير حقيقة زائفة عندنا مادامت لا تُعَاش حقا بكافة أشكالها السياسية والدينية والاجتماعية.

الحقيقةُ عَارِية!

عُرْيها يُخجِلنا.. نَتجاهلُها.. تخونُنا الجُرأة لِكشْفِها.. نُحاول سترْها و لَو بِورقة تُوت. ومع الأيام.. نتعوَّد عُرِيَها.. مَشاهدُ البُؤس تَعجِز عن صدْمِنا.. نَمُرُّ على جِراح الآخر بِلامُبالاة.. لِتبدأَ فينا أعراض العجز.. والبُرود.

لقد أصبحت الحقيقة عارية أكثرَ مِن اللازِم.. لِدرجة أنها لم تَعُدْ تُثيرُنا!

هذا الطفلُ الكامنُ فِينا

«تُـرَى لِـمَ يُنعم الله على الإنسان

بأفضل ما في الحياة في طفولته؟»

فكتور هيجو

عندما كان العالِم الطبيعي « هِنري ثُوريد » طفلا في الثامنة من عمره.. سأله شخص عما سوف يكون حين يكبر.. فأجابه الصبي باستغراب: « ماذا سأكون؟ سأكون أنا!! ».

إجابة غير متوقعة من طفل صغير.. لكنها تحمل معنى عميقا جديرا بالتأمل.

معظمنا ينظر إلى الطفولة كمرحلة للتحضير.. كفترة زمنية نتهيأ خلالها لنعيش بعد ذلك الهدف الأسمى..

مـرحلة البلوغ والرشـد . هذه الـرؤية تحـملنا على إسـقـاط معـاييرنا على الأطفـال . . ننكر عليـهم حـقـهم في طفـولة مفروض أن تـعاش بخصوصياتها . . بسذاجتها وعـفويتها وحماقتها . . لِنطلب منهم التصرف كما لو كانوا كبارا!

ألِفْنا مـعشـر «الكبـار» أن نلعب دائـما دور المعلم تجاه الأطفال نُلقِّنهم الدروس ونحاسبهم بمنطقنا ومزاجنا . ولكن ألا يقـال إن الطفل أب لِلرجل؟ بمعنى أن طفـولة الإنسـان تحكمه عندما يصير كبيرا . وإذن . . فلنجلسْ على طاولة التلمـذة . . لنسـمح لهـذا الطفل الكامن فـينا أن يقـول كلمته . . أن يُعلمنا دروسه . . يُفيدَنا من خبرات طفولته ويحـدثنا عن أسـرار انطلاقـته التي يفـتـقـدها الكبـار مع تقدمهم في العمر .

الطفل مِثال للعفوية . . هو صادق في أفعاله ورغباته . . وعندما يكذب فـهو يفعلها تحت ضغط الكبـار وخوفا

منهم. الطفل إنسان لم يتعلم بعد ارتداء الأقنعة.. إنه أصدق الجميع في التعبير عن ذاته.

في إحدى قصص «هانز أندرسون» يشير الطفل إلى الإمبراطور وهو يغرق في الضحك قائلا: «انظروا ألا ترون أن الإمبراطور عريان؟» وحده الطفل لم ينخدع بأكذوبة الثوب الخرافي الذي نسجه الدجالون للإمبراطور.. وحده قال الحقيقة العارية من كل زيف أو مجاملة.. قالها بكل براءة وعفوية: «ألا ترون أن الإمبراطور عريان؟»

أروع ما في الأطفال هو هذا الصدق الذي يصدِم الكبار.. صدق جريء لا يعرف الكِياسة أو المجاملة.. الأطفال يعبرون عن ذواتهم بحرية وعفوية.. والكبار يعلمونهم كبْت هذه العفوية.. يُخضِعُونهم لأصول المجاملة والنفاق الاجتماعي و «الإيتيكيت»!

يُعلمنا الطفل أيضا أن ننظر إلى العالم نظرة ملؤها

التساؤل والدهشة.. هذه الدهشة التي يَخطِفُها منَّا رُوتين الحياة اليومية.

الطفل لا يكف عن الفضول والتساؤل: ما هذا؟ إنها حمامة. وما الحمامة؟ إنها طير. وما الطير؟ إنه حيوان ذو جناحين. وما الحيوان؟ وما الجناح؟ لا جواب يَشفي غليله! والواقع أن الطفل يعلمنا من خلال أسئلته، التي تبدو لنا إلحاحا ساذجا، أنه لا حدود للمعرفة.. لا حدود للأسئلة في عملية البحث عن حقائق الأشياء.. يُعلمنا أن الأجوبة التقليدية الجاهزة هي في مُعظمها مضلِّلة!

الطفل يعيش لحظته.. يقفز ويلعب ويضحك ثم يبكي.. يُبعثر انفعالاته في عفوية.. عيون الآخرين لم تمتلك بعدُ سلطة كَبْت سلوكاته و رغباته.. وهو يبدأ في كَبْتها يوم يصطدم بعنف الكبار وكلماتهم الجارحة. اللعب عند الطفل أكبر من مجرد ترف ثانوي.. إنه احتياج

عميق.. خبز يومي!

نظرة الأطفال نظرةٌ حرة مُنطلقة لم تَطلْها بعد قيود الكبار. في كل إبداع بشري تكمُن لمحات طفولية.. في فضول العالِم.. خيال الفنان.. جُرأة المصلح الثائر.. بل في داخل كل منا يكمن طفل صغير.. طفل يسعى إلى تفجير طاقاته ورغباته.. لكننا نحبسه في قفص من الخجل والكبرياء.. والإحساس بأننا صرنا كبارا.. ولهذا لا يجوز لنا التصرف كالأطفال. نعتقد أن التقدم في العمر يتطلب منا التخلي عن أشياء كثيرة.. بينما الواقع أننا نتقدم في العمر عندما نبدأ في التخلي عن هذه الأشياء!

مباهج الحياة تختفي وراء أشياء بسيطة.. والنضج الحقيقي لا يُنكِر هذه الأشياء. قدرتنا على أن نضحك من أنفسنا والنظر إليها بقدر أقل من الجدية.. هذا نوع من النضج . القدرة على الانطلاق بطفولية.. القيام ببعض

المغامرات والحماقات.. هذا أيضا نضج! الذي لايقوم ببعض الحماقات، كما قال لاروشفوكو، ليس حكيما كما قد يظن!

ها هو الطفل الكامن فينا يطلب فسحة للتحرر.. فمن يسمح له بذلك؟ من؟

المساواةُ المُفْتَرَى عليها!

«إننا نعامل المرأة في أيامنا بِحُكم التعاليم السحرية القديمة.. وكل ما بيننا وبين أسلافنا الذين ماتوا قبل عشرة آلاف سنة أنهم كانوا يقولون إنها نجِسة..

وأمّا نحن فنقول إنها رقيقة لطيفة يجب أن نَرْبَأَ بها عن مفاسد المجتمع. والنتيجة واحدة في الحالين: وهي استبِعَادها عن النشاط الاجتماعي والثقافي والإنساني.»

سلامة موسى

جميلٌ أن يقف العالم أجمع على أيام معينة كل سنة تُخصص كل منها لقضية معينة.. كأن يَحتفل باليوم العالمي للبيئة أو اليوم العالمي لمحاربة التدخين وما إلى ذلك. لكن أغرب هذه الأيام وأكثرها مدعاة للعجب هو ما يُسمى باليوم العالمي للمرأة!

غريبة هذه الرؤية إلى المرأة.. وكأننا نتحدث عن «شيء استثنائي» يعيش بيننا ويستلزم الأمر يوما في السنة للالتفات إلى قضاياه ومشاكله!

أليست المرأة مثيلة الرجل.. مساوية له في الحقوق والواجبات.. أو هذا ما هو مفروض على الأقل؟ أليست النساء نصف المجتمع ونصف ساكنة الأرض؟

أين هو الوضع الاستثنائي إذن؟ ولماذا نتحدث عن «قضية المرأة» بدلا من الحديث عن قضايا الإنسان؟

يمكن تبرير المسألة باعتبار أن وضع المرأة اكْتسى صيغة استثنائية نظرا للحَيْف الذي طَالَها وجعلها تصبح كائنا من الدرجة الثانية.

تاريخ البشرية هو عموما تاريخ الرجال!

طبيعي إذن أن تتحرك أصوات في شكل أفراد أو اتحادات أو حكومات لتطالب برفع هذا الظلم وتكافح من أجل تحقيق المساواة. لكن الذي ليس طبيعيا في المسألة هو أن نحتفظ بالذِّهنية القديمة في النظر والتعامل مع المرأة.. في وقت نُطالب فيه أن تكون مساوية للرجل؟

مثلا . . ما معنى أن نرى على شاشات التلفزة أو نستمع في الإذاعة إلى برامج تعتبر « خاصة بالمرأة » جلُّ ما فيها يتمحور حول الأناقة والطبخ والتجميل؟ أليست هذه رؤية كلاسيكية لوظائف المرأة . . وكأن البرامج الأخرى التي تَعْنى بالفكر والسياسة والعلوم والفنون هي برامج « رُجولية » بعيدة عن اهتماماتها؟

هذا الكلام ينطبق أيضا على المجلات والصحف التي تعتبر نفسها مختصة في « قضايا المرأة » أو تفتح أبوابا خاصة بالمرأة!

هذا إعلام يُسيء إلى المرأة من حيث يزعم أنه يخدمها!

مطلوب التعامل مع المرأة بشكل طبيعي . . دون خصوصيات معينة. المرأة ليست دون الرجل كي تُحصَر اهتماماتها في مجالات معينة . . وهي ليست قاصرا كي تحتاج إلى أي شكل من أشكال الوصاية!

في المقـــابل.. مطلوبٌ من المرأة أن تتـــجـــاوز هذه «السّلبيـة».. أن تقتنع بقدراتها التي لا تقل في أي شيء عن قدرات الرجل.. وبالتالي تَحمُّلها كل المسؤوليات التي سبقها إليها الرجل.

مطلوب من المرأة أن تنسجم مع روح مبدأ المساواة وليس ظاهره فقط!

ولا سـبـيل لبناء الأسـاس الأول للمـسـاواة إلا بالتـعلم والعمل.. التعلم كفيل بتحرير فكرها وجعلها في مستوى كل المسؤوليات.. والخروجُ إلى العمل هو الضمان الوحيد لاستقلالها الاقتصادي وبالتالي تَحوُّلها من تابِعة للرجل إلى شريكة له!

عندها.. لن يصبح للاحتفال باليوم العالمي للمرأة أي معنى.. فهل نستطيع آنذاك أن نحتفل 365 يومًا في السنة.. بالإنسان؟

فرصةٌ اسمُها الحياة!

«كَفَفْتُ عن التفكير فيما جرى بالأمس..

وكففتُ عن التساؤل عمَّا سيجري غدا.

إن ما يهمني فقط هو ما يجري اليوم!

ماذا تفعل الآن يا زُوربا؟ إني أنام.. إذن نَمْ جيدا.

ماذا تفعل الآن يا زُوربا؟ إني أشتغل.. إذن اشتغل جيدا.

ماذا تفعل الآن يا زوربا؟ إني أُعانق امرأة.

إذن عانِقْها جيدا.. وانْسَ كل الباقي يا زُوربا..

فليس في العالم شيء إلا هي وأنت!»

كَازَ نتزَاكِي في رواية "زُورْبَا اليُوناني"

هناك ذبابة تعـــرف "بِذبابة أيَار" .. هذه الذبابة تولد وتكبر وتتناسل وتعيش وتموت في يوم واحد من شهر أيار (ماي)! حياة هذه الذبابة تمتد خلال يوم واحد فقط.. يوم واحد يقابل سبعين سنة عند البشر!

الزمن ينكمش ويتمطط باختلاف أشكال الحياة.. قيمة الزمن ليـــست في مـــدته.. عـــدد الســاعـات أو الأيام أو السنين.. قيمته الحقيقية مرتبطة بالأحداث التي مرت خلاله. هل استفدنا فعلا من فرصة الوجود على سطح هذا

الكوكب لِنكون سعداء مع بعضنا.. لنترك أي أثر للبشر القادمين يشكروننا من أجله.. أم أنها حياة تنْفلِت لحظاتها من بين أيدينا دون أن نحقق فيها شيئاً يستحق الذكر؟

نستيقظ كل صباح و في رصِيد كلٍّ مِنا أجْر يومي قدره 24 ساعة.. كل يُنفقه و يستثمره بطرقه الخاصة. لحظات الفراغ تُعتبر في بعضها شكلاً من التبذير..يفقد الزمن فيها قيمته ليصبح عِبئاً ثقيلا أُجبرنا على حمله.

من عادتنا أن ندعو لبعضنا بطول العمر.. و ربما لا نهتم لما نحن به صانعون. لقد عاش «مُوزار» حياة قصيرة مدتها 35 سنة.. ومع ذلك فقد كانت حياته من الكثافة والأهمية بحيث ترك للحضارة البشرية إِرثا موسيقيا هائلا لا زال محتفظا بروعته إِلى يومنا هذا.. كان «مُوزار» شعلة أو برقا خاطفا سطع لمدة وجيزة.. ثم رحل عنا ولسان حاله يقول:

فَلْأَعِشْ في النور بضع ثوان ... فهي خير من ألف عام!

بالمقابل هناك من تجاوزت حياته الستين عاما دون أن يجد لها أي معنى.. حياته مسلسل مُمِل من عمليات النوم والعمل والتناسل والغذاء.. ذبابة أيار تفعل كل ذلك بِطُرقها الخاصة في يوم واحد!

حدث هذا قبل مئات السنين.. مرَّ موكب «الإسكندر» بالفيلسوف الصُّعلوك «ديُوجِين» متمددا في ضوء الشمس.. فسأله ديوجين: ماذا تتمنى اليوم؟ أجاب الإسكندر: أن أجمع كل بلاد اليونان تحت سلطتي. وعاد يسأله: ثم ماذا؟ أجابه: إخضاع آسيا. فسأله: ثم ماذا؟ أجابه: إخضاع العالم. فسأله: ثم ماذا؟ أجابه: أستريح وأستمتع. عندها سأله «ديوجين»: وما الذي يمنعك أن تستريح وتستمتع الآن؟

لكن الذي وقع هو أن الإسكندر لم يسترِح ولم يستمتع

بعدها.. فقد مات بالحمى بينما هو غارق في مطامعه الجنونية لِغزْو العالم.

داخل كل مِنَّا «إسكندر» صغير.. يقول في نفسه: لن أرتاح قبل أن يصبح لي منزل فخم.. سيارة فخمة.. امرأة جميلة.. كثير من أثرياء العالم حصلوا على أكثر من ذلك دون أن يعرفوا للراحة طعما!

بالمقابل نصادف في حياتنا اليومية أناسا جد بسطاء.. لا تفارق البسمة شفاهَهُم!

الظروف الخارجية ليست شرطا للسعادة.. هي تساهم.. تؤثر.. لكن يبقى النبع الأساسي لها كامنا في دواخلنا. النفس البشرية جبارة وقادرة على الاستمتاع بالحياة حتى في أشد الأوقات محنة. الشاعر الأعمى «مِلْتُون» كان يقول: «ليس شقاؤُك أن تكون أعمى.. لكن شقاءَك أن تعجز عن احتمال العمى!».

في مذكراته بالسجن.. كتب الشاعر «سَميح القاسِم»:

«لا أعلم إذا كان الشهر الأخير ثلاثين يوما أو واحدا وثلاثين يوما.. لكنني أعلم جيدا أنني راغب في الحياة.. راغب فيها حتى اليوم الثاني والثلاثين من الشهر!».

لعبة الحياة أشبه بعملية تسلق الجبل.. المتعة في التسلق أكثر مما هي في الوصول إلى القمة.. كل فترة من العمر هي هدف في حد ذاته.. ولا تجوز التضحية باللحظة التي بين أيدينا أملا في لحظات قادمة مجهولة.. لا يجوز أن تكون الحياة هي ما يجري.. بينما نحن منشغلون بأشياء أخرى!

هي حياة واحدة أعيشها.. ولا أملك حياة غيرها.. وحياتي هي هذه اللحظة.

ماذا تفعل الآن يا «زُوربا»؟ إني أقرأ هذا الكتاب.. إذن اقرأه جيدا.. وانْسَ كل الباقي!

كُنْ رجُلاً ولا تتْبعني!

«نحنُ مِن دون ثقافة في خطرٍ رهيب
مِن أن نُصدق كلَّ ما يقولُه لنا المثقفون!»

الكاتب البريطاني تشترتون

أجل.. نحن من دون ثقافة في خطر رهيب من تصديق كل ما يقوله لنا المثقفون.. وحتى بحصولنا على قدر لا بأس به من الثقافة.. يظل الخطر قائما.. خطر التبعية الفكرية لهذا المثقف أو ذاك.

لكل مجتمع نُخبته.. فِئة مِمَّن يُعتبرون حامِلي مشعل الفكر والثقافة.. علماء وأدباء ورجال دين وفلاسفة وفنانون وساسَة. هؤلاء يقِفُون في الواجهة.. جَميل أن نستكشف عوالمهم ورُؤاهم.. نتأثر بأفكارهم وتجاربهم.. لكن الخطر

كل الخطر عندما يتحول تأثُّرنا بهم إلى شكل من التبعية.. نقبل كل ما يقوله الواحد منهم دون تحفظ.. ونُبرِّر المسألة بأن الرجل ذو علم غزير واطلاع واسع.. ولا مجال للتشكيك في أهليته وسلامة آرائه.

هذه التبعية قد تأخذ طابع القداسة لدى رجال الدين.. باعتبار أنهم يتكلمون باسم الله.. ومَن خالفهم الرأي فقد خالف شريعة الله! كم مِن الجرائم البشرية ارتُكِبت بِاسم حماية الشرائع الإلهية؟

«فولتير».. داعِية حرية الفكر الذي عاش فترات اضطهاد الكنيسة الكاثُوليكية للخارجين عن تعاليمها.. يُحذِّر قائلا: «إن الرجل الذي يقول لي أن تؤمن بِمِثل الذي أؤمن به وإلا سَيلعنُك الخالق.. سوف يتمادَى ويقول لي بعد ذلك اِتْبعْ عَقيدتي وإلا قتلتُك!»

«فولتير» يُحذر أيضا من التَّديُّن الوِراثي الذي ينتقل من

الأجداد إلى الأحفاد دون بحث ودراسة بحيث يصبح الخروج عن الدِّين السائد جريمة وخطيئة كبرى: «إذا أنت أصررت على أن الكفر بالدين السائد جريمة.. فإنك بذلك تُؤَثِّم المسيحيين الأوائل.. وتجد العُذر لأولئك الذين اضطهدوهم!»

جميع الديانات الكبرى كانت في بدايتها ثورة على الفكر السائد.. وهي لم تستمد قوتها إلا من الفكر الجديد الذي جاءت به.. والذي كان سببا لِقمعها واضطهادها.

في كتابه "تَهافُت الفلاسفة"، حذَّر «الغَزالي» من ممارسة الفلسفة باعتبار أنها تُؤدي إلى الكفر والإلحاد.. فرد عليه «ابن رُشد» في "تَهافُت التَّهافُت" بِمَثَل الذي مَنع العطشانَ من شُرب الماء البارد العذب حتى مات من العطش لأن رجُلا اختنق إثر شُربه فمات.

عقل الإنسان أثمن ما يملكه الإنسان.. لا يجوز

استبعاده بمبرر إمكانية تعرضه للخطأ.. وإلا سيموت من العطش.. عطش الفكر والمعرفة!

الترهيب الفكري إذا نجح مفعوله يُعطِّل العقل.. يُحول الإنسان إلى ببغاء يُردد ما لا يفهم.. هذا الكنز الذي يحمله فوق كتفيه يصبح عبئا لا نفع فيه! العقل الحُر لا يقبل ترهيبا.. إنه على استعداد لمناقشة كل شيء.. بهدوء.. دون تعصب.. دون خوف.. ودون خطوط حمراء!

ولأن العقل مُشاغب بطبيعته.. كثير الجدل والشك.. بينما الإنسان ميَّال إلى اليقين.. فإن هذا الوضع يشجع الإنسان على أن يُفوِّض من ينُوبون عنه في التفكير.. يُشجعه أن ينساق لعقلية المجتمع السائدة.. ليُسلِّم عن وعي أو لا وعي بأشياء لا يملك عليها أي دليل.

الخطأ يبدأ من المدرسة. النظام التعليمي القائم على

الحفظ لا يمكنه أن يبني مواطنا حرا.. مواطنا له الثقة في إمكانياته وقدراته العقلية.. مواطنا قادرا على تقديم وجهات نظره كما يُحسها ويقتنع بها. نظام الحِفظ يُعطِّل العقل.. يُعطل النقد.. يُعطل القدرة على تحليل الأشياء!

«كُن رجُلا ولا تتبعني!» هذا ما قاله المفكر الألماني الكبير "جوته".. الرجل العظيم ليس بالضرورة من يُقنعنا بأفكاره ويجعلنا نرى العالم بمنظاره.. ليس هذا هو المطلوب.. مطلوب أن نتعامل مع كل صاحب فكر باعتبار أنفسنا مفكرين أيضا.. وإلا تحول الأمر إلى تبعية وغسيل دماغ! أن أكون مخطئا فيما أنا مقتنع به.. أفضل من أن أكون مصيبا فيما لا أملك أي دليل على صحته!

يُقال إن المنصب العظيم لا يعصِم صاحبَه من الخطأ.. وهذا أيضا يمكن أن يُقال عن الثقافة. الثقافة الغزيرة لا تعصِم صاحبها من الخطأ. حتى الأغلبية مُعرضة للخطأ..

كم من عظيم اعتُبِر شيطان زمانه ليصبح بعد ذلك سابقا لزمانه؟

الحق المطلق لم يكن أبدا بيَد البشر! لقد أمضى «سقراط» حياة كاملة من التأمل والتفكير في الحياة والوجود والخير والشر.. ثم وضع كفَّهُ على خدِّه في النهاية وقال: «كل ما أعرفه الآن هو أنني لا أعرف شيئاً!»

عُيونُ الآخرين

«في المجتمع يسهل عليك أن تعيش كما يروق الناس..

وفي العُزلة يسهل عليك أن تعيش على هواك..

أما العظيم فهو من يقوى على العيش بين الآخرين

والمحافظة على استقلاله كما لو كان في عزلة!»

رالف والدو إمرسون

«الجحيم هو الآخرون».. عبارة شهيرة لفيلسوف الوجودية جَان بُول سَارتر. ورغم قساوة هذه العبارة في رؤيتها للآخر.. فإنها تحمل جزءا من الحقيقة حول علاقة الإنسان بالآخرين.. هؤلاء الذين يضعون حدًّا لرغباته وآماله ليفرضوا عليه نمطا معينا في العيش.. مما يُشكل إحدى أهم أسباب تعاسته وشعوره بالخيبة والإحباط.

هناك صورة بارعة أوردها الفيلسوف «شُوبنهاور» حول هذه العلاقة القائمة في المجتمع البشري.. إن الناس أشبه

بمجموعة من القنافد في ليلة من ليالي الشتاء الباردة. ولكي تبحث عن الدفء والحرارة.. قامت القنافد تقترب من بعضها مُتكومة فيما بينها.. لكن ما لَبِث كل قنفد يشعر بألم وخز أشواك الآخرين.. فابتعدت القنافد عن بعضها لِكي تُرغمها قساوة البرد على التكوُّم من جديد.. لتجد مرة أخرى أشواكها بالمرصاد. وأخيرا.. انتهت القنافد إلى مسافة مناسبة فيما بينها تضمن لها أكبر قدر ممكن من الحرارة وأقل قدر من الألم!

لِكُل منا أشواكه.. نؤلم الآخرين.. ويؤلمنا الآخرون.. عن قصد أو غير قصد.. بحسن نية أو بسوئها. نتخاصم.. نتحارب.. نتفرق.. لكن صقيع الوحدة يُؤلمنا أكثر.. نَحِنُّ إلى دفء الآخرين.. نحاول قبول الآخر بأشواكه. ومع تقدم العمر.. نتعلم شيئا فشيئا أن أجمل الزهور تحتضن الأشواك.. وأن القنفد بدون أشواك.. ليس قنفدا!

منذ القدم.. سَعت الأديان والفلسفات والقوانين للاهتداء إلى هذه المسافة المناسبة. كُبرى ديانات العالم اشتركت بشكل مدهش في التعبير عن المبدأ الأساسي لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان وإن اختلفت في تفاصيلها:

الإسلام: «لا يُؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه». (حديث نبوي)

المسيحية: «عاملوا الآخرين مثلما تُريدون أن يُعاملوكم. هذه هي خلاصة الشريعة وتعاليم الأنبياء.» (إنجيل متى 12:7)

الكونفوشية (القرن الخامس ق.م): «هل هناك سُنة واحدة للسلوك يجب اتباعها خلال حياة الإنسان كلها؟ إنها بكل تأكيد سنة الدَّماثة المحبوبة: لا تفعل للآخرين ما لا تحب أن يفعلوه لك.» (المختارات 15 ـ 23)

البوذية (القرن الخامس ق.م): «لاتُؤْذ الآخرين بوسائل

تجدها أنت نفسك مؤذية . » (أودنا فارجا ـ 5 :18)

الطاوية (القرن السادس ق.م) : « اعْتبِر ما يربحه جارك كأنه ربحك أنت . . وخسارة جارك كأنها خسارتك أنت . » (تاي شانج ـ كان رينج)

اليهودية (القرن الثاني عشر ق.م) : « كل ما هو مكروه بالنسبة لك . . لا تفعله لأخيك الإنسان . هذا هو كل القانون والباقي تعقيب عليه . » (التلمود : سبت 131)

البراهماتية (القرن السادس عشر ق.م) : « هذا هو كل الواجب : لا تفعل قط للآخرين ما يثير ألمك إذا حدث لك . » (مهابهاراتا 5 : 1517)

الدعوة واضحة . . لا تفعل للآخرين ما لا تحبه لنفسك . العلاقات الإنسانية يمكن بناؤها في ظل الاختلاف . . شرط احترام حق الآخر في الاختلاف . . ومعاملته بمثل ما نريده منه . ولكن إلى أي حد يتوجب على الفرد منا أن يتنازل

عن رغباته إرضاءاً للآخرين أو تماشيا مع عرف المجتمع؟ إلى أي حد نسمح لعيون الآخرين أن تتدخل وتتحكم في اختياراتنا وسلوكاتنا؟

يقول بنجامين فرانكلين: «إن عيون الآخرين تُحطمنا.. فلو كان الجميع عُميانا ووحدي المُبصر لما سَعيت إلى منزل فخم وأثاث رفيع!»

عيون الآخرين تُفقدنا بساطة العيش.. نُكلف أنفسنا ما لا تطيق في سبيل الظهور بمظهر «لائق».. نضرب ألف حساب لما سيقوله الآخرون عنا.. نسمح لهم أن يَحكموا حياتنا.. ليتحولوا هم إلى جحيم.. وتتحول الحياة معهم إلى جحيم!

الإنسان لا يستطيع التخلص بشكل مطلق من تأثيرات الآخرين نظرا لارتباطه بهم.. لكنه يستطيع أن يُفرق بين استشارة الآخرين وحقه هو في القرار.. عليه مسؤولية أن

يُدرك متى تتوقف حريته لتبدأ حرية الآخرين.. وله الحق في أن يعطي لقراراته ورغباته المشروعة فرصة الظهور. إنه في حاجة إلى أن يحتفظ لنفسه بمكان معزول يعيش فيه جزءا من حياته كما يريدها هو وليس كما يريدها الآخرون.. في حاجة إلى شجاعة أكبر لتحدي عيون الآخرين.. على حد قول الشاعر العربي:

من راقب الناس مات غمًّا وفاز باللّذّةِ الجسُور

كلامٌ في الحُبّ

« تقول إنك تُحب الأزهار.. وتقطفها.

تقول إنك تُحب الطيور.. وتضعها في القفص.

عندما تقول لي «إني أحبك».. ينْتابني الخوف!»

شاعر

لو طرحنا السؤال: ما هو الموضوع الأكثر تناولا من قِبل الفنون والآداب ومعظم أشكال الإبداع الإنساني؟ الجواب: هو الحب!

نُشغل التلفزة فنجد شريطا قصيرا أو مطولا موضوعه الرئيسي هو الحب.. نستمتع بالموسيقى فنكتشف أن جل الأغاني تشدو بالحب. في عالم الشعر والقصة.. يبقى الحب أكثر المواضيع تناولا. هكذا يُطل علينا الحب من جميع الأبواب والنوافذ!

أي شيء إذن هو هذا الذي يُسمى بالحب؟

حاول القدماء تعريف الحب.. وضعوا له عشرات التعاريف. سُئل أعرابي عن الهوى فقال: «هو أظهر من أن يُخفى.. وأخفى من أن يُرى.. كامِن كُمون النار في الحجر.. إن قَدَحته أَوْرى.. وإن تركته توارى». عرَّفه الرِّوائي «بَلزاك» بأنه «شِعْر الحواس».. ووصفه الفيلسوف «شُوبنهاور» بأنه «فخٌّ نصبته للإنسان غريزة النوع». أما عند «فْرُويد» فهو مجرد نِتاج للغريزة الجنسية مختفية وراء قناع من العِفة والطهارة.

الفيلسوف الكبير «أفلاطون» ذكر في إحدى محاوراته أسطورة يونانية قديمة لتفسير أصل الحب. تقول الأسطورة إنه في البدء خلقت الآلهة الإنسان على شكل كامل.. ولكنها خافت أن يطمح البشر إلى الخلود.. فقسمت كل مخلوق بشري إلى قسمين.. ذكر وأنثى. وهكذا بقي كل

واحد منهما يبحث عن النصف الآخر الذي يُكمله.. لينشغل عن فكرة الخلود!

كان أفلاطون يرى أن حقيقة الحب في الترفع عن شوائب المادة والسمو إلى نورانية الروح. هذه العملية عند أفلاطون تجري في درجات.. حيث يبدأ الإنسان بحب الأشياء الجميلة.. ثم يسمو إلى حب النفس.. وبعد ذلك يرتقي إلى حب ثمرات النفس من قوانين ومعارف.. والقِمة في الحب تكمُن في بلوغ المثل الفلسفية العليا: الحق.. الخير والجمال! هكذا أصبح ذلك النوع من الحب المثالي العُذري المترفع عن كل المطالب الحِسية ورغبات الجسد يشار إليه بالحب الأفلاطوني.

هل للحب الأفلاطوني وجود على أرض الواقع؟

بعيدا عن عالم المُثُل يبقى الحب بحاجة إلى التعبير عن نفسه في الجسد. الحب العُذري بشكله الروحي المطلق لا

وجود له في عالم البشر. حتى رُواد الحب العذري من أمثال مجنون ليلى أو جميل بثينة ـ ولو افترضنا أن فكرة العلاقة الجنسية كانت بعيدة عن تفكيرهم ـ ما كانوا لِيُزيحوا عن فكرهم الرغبة في الاقتراب من المرأة التي أحبها كل واحد منهم.. والظَّفر معها ولو بلمسة يد!

إذن.. هل الحب نتاج لرغبات الجسد لا أكثر.. أم تُراه شيئا يتجاوز ذلك؟

الأكيد هو أن الصِّلة الجنسية لا تؤدي بالضرورة إلى الحب.. وهذا ما تُثبته أية علاقة بين زوجين مُتنافرين.. أو أية علاقة مع صاحبات أقدم مهنة في التاريخ.. حيث المرأة مجرد آلة لإشباع رغبات الجسد لا أكثر. الغريزة الجنسية تكفي للإيقاع بالرجل والمرأة لإنتاج النسل.. ولكن هناك إحساسا لا تسيطر عليه هذه الغريزة.. هو حب يستمد طاقته من المخيلة الشِّعرية للإنسان أكثر من الدافع الجنسي..

بل إن العلاقة الجنسية قد تقضي عليه.. وهذا ما حدث لعدة مفكرين وفنانين.. فالواحد منهم يستلهم مادة إبداعه من المرأة التي تحفزه بجمالها وسلوكها وتُثيره بِصدِّها وإقبالها.. لكن ما إن يظفر بها كزوجة حتى تضعف قدراته الإبداعية.. وربما كان في ذلك ما يبرر بقاء العديد من كبار المبدعين عزابا! لنتصور أن قيس ظفر بليلى زوجة له وأُما لأبنائه.. هل كان سيترك لنا تلك التحف الشعرية الرقيقة من قَبيل قوله:

أعُدُّ الليالي ليلة بعد ليلة

وقد عشت دهرا لا أعد اللياليا

وددت على حبي الحياة لو أنه

يُزاد لها في عمرها من حياتيا

التعبير الجسدي عن الحب مطلوب.. و أساسي.. لكن الحب لا يكفيه هذا التعبير الجسدي.. لا يروي ظمأه..

يطلب أبعادا تتجاوز المحسوس إلى اللاَّمحسوس. هذا الإشكال عبَّر عنه بشكل رائع الشاعر ابن الرومي حين قال:

أعانقه والنفس بعد مَشُوقة

إليه وهل بعد العناق تداني

وأَلثُم فاه كي تزول حرارتي

فيشتد ما ألقى من الهَيَمَان

ولم يَكُ مقدار الذي بي من الهوى

لِيَرويه ما ترشف الشفتان

كأن فؤادي ليس يشفي غليله

سوى أن يُرى الروحان يمتزجان

الحب عاطفة مجنونة.. والأصل فيه الشعور بالحرية.. فإن أحس أحد المُحِبَّيْن بسيطرة الآخر ورغبته في الامتلاك والإخضاع.. آذن ذلك بفتور الحب وزواله. بينما الزواج بطبيعته يتضمن قيودا أكبر.. إنه يتجاوز المشاعر

والأحاسيس إلى الالتزام بمسؤوليات بشهادة الأهل والمجتمع.

في الزواج يتملك الطرفين نوع من الإحساس بالامتلاك. الرجل يقول «هذه زوجتي».. والمرأة تقول «هذا زوجي». الرغبة في الامتلاك إذا تجاوزت حدودا معينة.. تجلب معها الكوارث!

التدخل في الكبيرة والصغيرة.. الغيرة من كل شيء.. ومن لا شيء.. أمور تُقيِد.. تُزعج.. وقد تُحوِّل معها الحياة إلى جحيم.. ولو كانت برفقة أجمل نساء العالم.. أو أكثر الرجال وسامة! الحب الناضج ليس امتلاكا.. ليس اندماجا كاملا بين اثنين.. ليس محاولة لجعل «1 + 1» يساوي 1 .. بل هو اعتراف باستقلالية الآخر.. احترام لحريته. ومهما كان عمق المحبة.. فإن حدا أدنى من الحرية والاستقلال هو أمر لا غنى عنه لكل إنسان.

الحفاظ على الحبيب كالحفاظ على قطعة من الصابون في

اليد.. كلما حاولتَ إمساكها بقوة كلما انزلقت خارج يدك. هذه وصية ثمينة من «نبي» جبران إلى سكان مدينة أُورفليس.. يُوصي فيها الأزواج والأحباء قائلا: «أحبوا بعضكم البعض.. ولكن لا تُقيدوا المحبة بالقيود.. بل لتكن المحبة بحرا مُتموجا بين شواطئ نفوسكم. كما أن أوتار القيثارة يقوم كل واحد منها وحده.. ولكنها جميعا تخرج نغما واحدا».

إذا كان الزواج قرارا تُحسب فيه الأمور بتبصر وعقلانية.. فإن الحب عاطفة متمردة.. تُوثِر الفوضى على النظام.. وقد لا تُعير أدنى اهتمام للاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية أو الاختلافات العرقية والدينية. الرسام الفرنسي «جوجان» هرب من زوجته إلى جزر هايتي حيث تزوج فتاة بدائية تجهل لغته.. وهذا نفس ما فعله الشاعر «رامبو» الذي هرب إلى الحبشة ليشتغل في تجارة الجلود..

ويعيش بِرفقة زوجة لا تعرف حتى كيف تنطق اسمه!

الحب قد لا يعير اهتماما للشباب والجمال.. و لعلنا نجد بذلك عذرا للشاعر الشاب الذي وقع في حب عجوز شمطاء.. فلما استغرب منه أصحابه وعاتبوه.. رد عليهم:

أحببتُها شمطاء قد شاب وَلِيدُها

وللناس فيما يعشقون مذاهب

يُقال إن الحب أعمى.. ويُقال أيضا إن الزواج يُعيد إليه البصر. فالملاحظ عموما أنه خلال فترة ما قبل الزواج يُظهر كل طرف أفضل ما عنده.. العلاقة قبل الزواج مهما طالت وتعمقت.. تبقى محدودة.. كالفرق بين أن يكون لديك صديق تلتقيه بين الحين والآخر في المقهى للضحك والدردشة.. وبين أن يُشاركك نفس الصديق المسكن!

بعد الزواج.. تختفي الأقنعة.. يُنزع الماكياج.. تنكشف العيوب النفسية والجسدية.. يصبح تصنُّع الرقة

واللطف بشكل دائم ضربا من المستحيل.. تظهر نوبات الغضب.. فلتات اللسان.. الرغبة في السيطرة.. والاستحواذ بالقرارات. وإذا لم يكن الشريكان يتوقعان كل ذلك ولا يفتحان حوارا في هذه الأمور.. إذا لم تكن لديهما نظرة واقعية للزواج.. إذا بنى كل منهما تصورا خياليا للشريك الآخر غير طبيعته الحقيقية.. فإن الصدمة هي النتيجة المتوقعة. مقدار الصدمة مرتبط بمقدار اللاصراحة.. والتصنع.. والكذب قبل الزواج!

قبول الآخر كما هو.. لا كما نريده أن يكون.. شرط أساسي لعلاقة مُوفقة. المرأة التي تقول في نفسها: «بعد الزواج.. سأُغيِّر عاداته.. طِباعه الحادة.. طريقته في اللباس».. هذه المرأة تخدع نفسها ما دامت لا تملك أية ضمانات على تحقق هذه التكهنات. ولأنها لم تقبل الرجل كما هو.. بل بشروط مُسْبقة وضعتها في مخيلتها.. فإنه

متى خابت توقعاتها.. واستمر الزوج في عاداته القديمة.. أُصيبت بالإحباط وخيبة الأمل.

البحث عن أسباب الفشل في الزواج قد يكمُن في دوافعه. بعض الرجال يتزوجون من أجل الحصول على طباخة.. وخادمة للمنزل.. تُوفر له أسباب الراحة المادية والإشباع الجنسي. زواج من هذا النوع.. بغياب مشاعر الحب أو أي اهتمام فِعلي برغبات الآخر واحتياجاته.. قد يستمر كأي شكل من أشكال التعايش السلمي بين بني البشر.. دون أن يؤدي إلى استمتاع حقيقي برفقة شريك العمر. يقول ماركس: «إذا كان من واجب الزوجين ـ كما تحتم وصايا المحبة القديمة ـ أن يُحبا بعضهما البعض.. أَليْس من واجب الحبيبين أن يتزوج بعضُهما البعض وليس أي إنسان آخر؟ أليس حق هؤلاء المحبين أقوى من حق الوالدين والأقارب وغيرهم من سماسرة الزواج؟»

ولكن.. هل حقيقة أن الزواج يقتل الحب؟ وأن زواج الحب مُعرض أيضا للفشل؟

في الزواج.. من الصعب التكهن بالنتائج. الزواج ليس تفاعلا كيميائيا نُضيف فيه الأوكسيجين إلى الكربون لنحصل على ثاني أوكسيد الكربون! الظاهرة الإنسانية أعقد بكثير.. إنها أشبه بتفاعل قابل للانفجار في أية لحظة. أسباب النجاح والفشل متعددة ومتشابكة.. طباع الزوجين.. خلفيتهما الثقافية.. الأحوال المالية.. مدى التوافق النفسي والجسدي.. الأهل.. كلها متغيرات قادرة على حمل مفاجآت غير متوقعة. النجاح في الزواج أصعب من قدرة البهلوان على السير على خيط رفيع! حتى الحب ليس ضمانا لنجاح الزواج.. و إن كان مطلوبا بل و أساسيا. بلغة المنطق الرياضي.. الحب شرط لازم لنجاح الزواج.. ولكنه شرط غير كاف!

الكاتب الروسي الكبير «تُولستوي» له تجربة جديرة بالذكر. لقد تزوج مؤلف «الحرب السلام» عن حب.. وكانت زوجته مفتونة به.. كيف لا وهو كاتب روسيا الأول وأحد نبلائها من أصحاب الثروة العظيمة؟ لكن تولستوي كان أرفع من ذلك.. فقد كان هاجِسه الأول هو الفقراء.. إنه يبكي من أجلهم و هُم يُقاسون ويجُوعون.. بينما هو يستغل صدفة انتمائه للطبقة الأرستقراطية ليعيش مرتاحا. لهذا قرر أن يوزع ثرواته على المزارعين الفقراء ليعيش حياة بسيطة. هنا تقوم قيامة الزوجة ثائرة من أجل أبنائها الذين وُلدوا أغنياء وشاء أبوهم أن يجعلهم فقراء! هددته بالانتحار.. لم تترك له فرصة للخلوة والإبداع.. حولت حياته إلى جحيم. وفي سن الثانية والثمانين.. هرب كاتب روسيا الأكبرمن بيته في إحدى ليالي أكتوبر الباردة ليلفظ أنفاسه قرب محطة سكة حديد مُقفِرة.. وطلب من

أبنائه ورجال الدين ألا **يرى زوجته حتى يتأكدوا من** موته.. فنفذوا وصيته حرفيا!

كان « تولستوي » كالنسر يختار قمم الجبال الباردة مكانا له.. هناك في الأعالي يعيش مَخاضه الفكري ليُولد إبداعه كما يولد الجنين في الظلمة. كانت له رُؤى وأفكار تتجاوز همومه الشخصية إلى هموم المعذبين في الأرض. في المقابل كانت زوجته تطلب منه أن يكون رجلا عاديا.. مجرد زوج وأب متفرغ لبيته وأسرته.. حاولت أن تجذب النسر من الأعالي لتحوله إلى دجاج مُدجَّن بقربها.

و إذا كان من السهل على الرجال والنساء الوقوع في الحب.. فإن من أصعب التحديات الحفاظ على شعلة هذا الحب بعد الزواج.

الحب قبل الزواج نار متأججة عنيفة.. وإذا كان من المستحيل أن تظل هذه النار على نفس الدرجة من التأجج

مدى الحياة.. فالمطلوب على الأقل توليها ببعض الرعاية حتى لا تنطفئ تماما!

الحب ليس مجرد نوبات من الرومانسية والأحلام الوردية.. إنه صراع شرس للتغلب على الأنانية.. قدرة على العطاء.. والتضحية. الحبيب غير الناضج ـ على حد قول عالم النفس إريك فروم ـ يقول: أحبك لأني أحتاج إليك.. أما الحبيب الناضج فيقول: إني أحتاج إليك لأني أحبك.

في كل زواج قدر من الصّدمة! العقلاء من الأزواج يعملون على تجاوز الصدمة عبر محاولة فهم الشريك وقبوله بشكله الحقيقي.. لتبدأ مرحلة صعبة من البحث عن التوافق والانسجام. الوصول إلى حالة التوافق يتطلب صبرا ومجهودا.. يتطلب قدرا من التنازلات المتبادلة.. وقبول واقع قد يكون أقل جمالا مما هو مُتوقع.

التوافق في الزواج كالقدرة على المشي.. نُولد بقابلية المشي.. ولكن تذهب الشهور الأولى في الزحف.. والمحاولات الفاشلة.. والسقوط. وفي كل سقطة.. نتألم.. و نتعلم. وفي النهاية.. نتمكن من المشي بكل ثقة.. وبعيون مغمضة.

ولأن الحياة مليئة بأسباب النّكد.. كما أنها مليئة بأسباب الفرح.. فإن اللحظات الجميلة ليست دائما سهلة المنال. صناعة اللحظات الجميلة فن يتطلب بعض الإبداع.. والمثابرة. الإنسان الذي يتوقع أمسية دافئة برفقة شريكه يبدأ في الإعداد لها منذ الصباح.. كلمة جارحة واحدة كافية لإفساد اليوم بأكمله! بينما كلمة ثمينة يكثر سماعها بين العشاق.. ويندر سماعها بين الأزواج.. من قبيل «أُحبك».. قد تكون كافية لإشعار شريك العمر بالدفء لمدة سبعة أيام شتائية!

من يَتبنّى فكرة التّبني؟

« أطفال الناس هُم أطفالي . . الطفل هو الطفل . .
كان من صُلبي أو من صُلب الآخرين . »

الكاتب محمد شُكري

في مواجهة الظروف الشاذة المتطرفة.. لا مفر أحيانا من حلول متطرفة.. تُعيد الأمور إلى وضعها الوسط. لهذا مادام هذا الموضوع يحمل فكرة لا تخلو من نكهة التطرف.. دعنا في البداية نُصحح بعض مفاهيمنا.. معترفين أن الرأي المُتطرف قد يحمل الدواء الناجع.. بينما تحت مبرر الوسطية والحياد، قد نقع في فخ المهادنة والمصالحة مع واقع رديء!

الفكرة ببساطة هي كالآتي: في الوقت الذي يعيش فيه

بيننا المئات من أطفال الفقر والتشرد المحرومين من كل رعاية أسرية.. لماذا نستمر في إنجاب أطفال آخرين؟ أو على الأقل لماذا لا يفكر كل أب وأم في تبني طفل أو طفلين وضمهم إلى أطفالهم الآخرين؟

أول اعتراض على هذه الفكرة متوقع من النساء: هذا حرمان من ممارسة إحدى أروع عواطف الأنثى.. عاطفة الأمومة! بالنسبة للرجال.. الأمر يتعلق بالحرمان من عاطفة الأبوة.

قبل بضع سنوات.. تعرفت على زوجين حالتهما المادية جد ميسورة.. كلاهما قادر على الإنجاب.. ومع ذلك فقد اتخذا قرارا بتبني طفل و طفلة أخذاهما من الملجأ!

هذا الموقف يبعث فعلا على التساؤل: هل عاطفة الأمومة أو الأبوة لا سبيل لإشباعها إلا مع أطفال من صلبنا.. أم إنه من الممكن إشباعها مع أطفال أنجبهم

الآخرون؟

ما تُثبته التجربة هو أن التربية والتعايش مع الطفل هو أساس هذه العواطف. الذي يعتني بالطفل، يشعر به ويعيش إلى جواره، هو أكثر الناس إحساسا بالعاطفة نحوه.. كان أبا أو أما أو جداً أو حتى شخصا بعيدا عن الأسرة. بل إنك تجد آباءاً حقيقيين يمارسون أشكالا فظيعة من العنف ضد «أبنائهم» مقابل آباء بالتبني أكثر رقة وعطفا تجاه أبناء الآخرين!

عندما سُئل أديب طنجة «محمد شكري» إن كان يحلم أن يكون أبا ويمارس الأبوة.. رد قائلاً: «أطفال الناس هم أطفالي.. الطفل هو الطفل.. كان من صُلبي أو من صلب الآخرين!»

من جهة أخرى.. يَبدُو مُبرران أساسيان لفكرة الإقبال على التبني مقابل الإقلال إن لم يكن الإقلاع عن الإنجاب.

المبرر الأول يتمثل في النمو السكاني السريع الذي نشهده بموازاة مع ظروف معيشية لا تزيد إلا صعوبة وتأزما . . والثاني هو واقع الأعداد الهائلة من أطفال الفقر والتشرد .

من الغريب أن نعرف أن سكان العالم المتقدم يمثلون نحو خُمس البشرية . . بينما الدول الأقل تقدما يمثل سكانها حوالي الأربعة أخماس المتبقية . المجموعة الأولى تنمو ببطء يجعلها أقرب إلى حالة التَّثْبِيت . . حيث المواليد يُغطون بالكاد أعداد المتوفين . . أما المجموعة الثانية الأكثر فقرا وتخلفا فهي تتكاثر بسرعة تفوق الأولى بنحو أربع مرات !

إننا بانتمائنا للمجموعة الثانية . . نعيش مشكلة تزايد سكاني كبير بحيث لو استمر على وتيرته الراهنة ، فإن الحلول الاقتصادية ستبقى محدودة الفعالية . . وستصبح العملية أشبه بمحاولة مستمرة لتجفيف أرضية مُعرضة لصنبور مفتوح ! و الغريب فعلا أن نجد الأسر الأكثر فقرا هي

الأكثر إنجابا.. ويكفي دليلا على ذلك أن تمر بجانب حي فقير لتتساءل إن كان الآباء التعساء لم يرتكبوا عملا مجنونا عندما قرروا إضافة تعساء جدد إليهم!

فإذا اقتنعنا بخطورة التزايد السكاني الهائل في ظروف لا تزيد إلا صعوبة.. وأن عواطف الأبوة والأمومة يمكن أن نستعيض عنها بعاطفة أكبر وأشمل هي «عاطفة الإنسانية».. لا يتبقى إلا أن ننظر حولنا.. لنجد أطفالا في عمر الزهور.. يعيشون أي شيء إلا طفولتهم! أطفال احترقت براءتهم في التسكع والتسول والأعمال الشاقة.. أطفال يدفعون ثمن ذنب لم يقترفوه.. ولسان الواحد منهم يردد ما قاله «أبو العلاء المعري»:

هذا جَناهُ أبي عليّ وما جنيتُ على أحد

بعض المحظوظين منهم يجد نفسه في ضيافة الملاجئ.. وإن كانت الملاجئ توفر لهم المسكن والمأكل.. فإنها تبقى

عاجزة عن توفير الجو العائلي.. وإشباع الاحتياج العاطفي.. هذا الذي لا ثمن له!

هؤلاء أطفال يعيشون على هامش الحياة والمجتمع.. إنهم اليوم أطفال.. ولكن غدا سيكبرون.. و تكبر معاناتهم.. و كثير منهم سيتحولون إلى لصوص وقطاع طرق. في ظروف اللامبالاة و الإهمال.. الحمل الوديع مُعرض لأن يصير ذئبا متوحشا.

سُئِلت أم تبنَّت إلى جانب أطفالها أطفالا آخرين: «أليس لديكِ أطفال تعْتنين بهم؟» فأجابت: «بلى.. ولكن هؤلاء الأطفال ليس لديهم من يعتني بهم!»

هذه رؤية عظيمة.. تتجاوز الذات إلى الآخر.. خصوصا إذا كان هذا الآخر طفلا!

في دوامة الحياة اليومية وانصراف كل إلى مشاغله ومتاعبه.. يستطيع كل منا أن يعيش فقط من أجل

نفسه.. وأسرته.. وأطفاله.. دون أن يَلُومه أحد على ذلك. ولكن.. أليس مشهد طفل مشرد كافيا لإزعاجنا وإشعارنا بقدر أكبر من المسؤولية؟ ألن تكون الحياة أكثر جمالا وبهجة لو وجد كل الأطفال بيوتا تأويهم.. ومدارس تحتضنهم و تُعلمهم؟

لستُ أذكر أين قرأتُ هذه الكلمات.. ولكنها كلمات ظلت عالقة في ذهني.. يَعلُو رنينها مُنبِّها كلما لذَّ للنفس أن تتقوْقع على ذاتها وتتباكى على همومها:

كاد القلق يُوزعني أشتاتا

لأن قَدَمي فقدت حذاءها..

إلى أن رأيت منذ يومين

رَجُلا بلا ساقين!

تهديدٌ مُوجّهٌ للجميع!

«ظلم مُوجه لإنسان واحد . .

هو تهديد مُوجه للجميع!»

مثل عالمي

استيقظتُ صباح ذلك اليوم على أصوات صراخ حادة. عندما أطللتُ من الشرفة كان المشهد مُروعا: فتاة في ربيع العمر تتعرض لاعتداء وحشي من طرف شاب و فتاة أكثر منها ضخامة وقوة. كانت صرخات الفتاة المتفاوتة بين التأوُّه والسُّخط والإستغاثة تتردد دون انقطاع تحت وطْء اللكمات وعمليات الرَّفس التي تتلقاها.

في المقابل ـ وهذا ما يزيد القلب حسرة و ألما ـ كان عدد من المارة يُعاينون المشهد دون أن يجرُؤ أحدهم على

التدخل. بعضهم أخذ له مكانا للفرجة متابعا تسلسل الأحداث بتشوق وإثارة.. بينهم مجموعة من الرجال بطول قاماتهم وعرض شواربهم مُتكئين جنب الحائط.. متابعين عملية الإعتداء ببرودة دم فظيعة!

لماذا نتعامل مع أحداث كهذه بكل هذه البرودة واللامبالاة؟ أهو الخوف؟ أم هو تبلُّد الإحساس بالآخر؟

في إحدى كتب المطالعة الابتدائية القديمة.. توجد قصة تُدعى« الثيران الثلاثة والأسد ». في نهاية القصة.. نقرأ هذه الجملة المشهورة التي تقال على لسان الثور المتبقي وجها لوجه أمام الأسد الذي التهم صديقيه: «لقد أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض؟»

كم من أسد بشري يلتهم ضحاياه أمام مرأى الجموع الغفيرة و لا من يهُز ساكنا.. كأن الأمر لا يعنيهم بتاتا؟

أتخيل لو أن الفتاة التي لقيت ذلك الصباح مالقيته

كانت ابنة أو زوجة أحد الرجال ذوي الشوارب المتكئين جنب الحائط للفرجة.. أو لو كان هو نفسه مكانها.. لماذا لا نتدخل حتى يمسنا الأمر مباشرة؟

الأسود البشرية تستغل فينا هذا الخوف والضعف.. هذه اللامبالاة.. لتمارس قوانينها الخاصة.. ونبقى في موقع المتفرج.

حذار من هذه اللامبالاة القاتلة! اليوم الضحية هو ذلك الآخر الذي لا نعرفه.. وغدا لا ندري من سيأتي دوره. لابد أن يعلم كل واحد منا أنه ليس بعيدا عن موقع الأحداث بالشكل الذي قد يظنه.. وليعلم كل من يشاء الرَّفس أنه يقف على رِجْل واحدة!

عندما تُكشر التقاليدُ عن أنيابها!

«إن الأمة المُستعبَدة بِرُوحها وعقليتها لا تستطيع
أن تكون حرة بملابسها وعاداتها!»

جبران خليل جبران

كانت الطبقة الحاكمة في الصين المُسماة بطبقة «المانشو» والتي أُزيحت عن الحكم في ثورة 1911 تُمارس طقوسا وتقاليد تعمل على تكريسها والحفاظ عليها كما تحافظ على سلطانها. من هذه التقاليد أن تُربط قدم الطفلة بأربطة وثيقة... حتى إذا صارت آنسة على وشك الزواج كان بإمكانها أن تفخر هي وعائلتها بأن قدمها صغيرة.. بل صغيرة لدرجة لا تسمح لها بالسعي والعمل.. لأن السعي والعمل من صفات الفقراء والصعاليك.. أما هي فمن طبقة

النبلاء الأثرياء التي لا يليق لها أن تعمل! هكذا كانت الآنسة النبيلة تعيش حياتها بقدمين ضامرتين غير قادرتين على الحركة من شدة ضغط الأربطة على الشرايين والأوردة.. تعيش لتفخر أمام المجتمع بقدميها الصغيرتين النبيلتين.. وتُخفي حسرتها على قدميها الضائعتين!

لكن الصين ما لبثت أن حررت أقدام فتياتها من قيود النبل الكاذب.. ليخرجن إلى العمل والحياة الاجتماعية دون أي إحساس بالحرج.

لكل مجتمع تقاليده وأعرافه.. أشكال من الطقوس والعادات يتوارثها جيل عن جيل ويأخذ بها معظم الناس في حياتهم وتفكيرهم.. بعضهم يرفعها إلى مرتبة التقديس ويعتبر كل خروج عنها عملا مُشينا.

العلاقة بين الجنسين هي أكثر العلاقات الإنسانية عُرضة للرقابة من جانب التقاليد. في عُرف المجتمع.. كل علاقة

تقوم بها أنثى قبل الزواج هي خطأ يهدد مستقبلها.. بينما نفس العرف لا يُحاسب الذكر كثيرا على نفس العمل.. مع العلم أن أية علاقة في شكلها الطبيعي لا يمكن أن تقوم إلا بين ذكر وأنثى!

هذا الانحياز الواضح للرجل يشجع هذا الأخير على اتخاذ سلوكات متناقضة. الرجل عندنا عموما قد يسمح لنفسه بِخوْض أي شكل من العلاقات مع الجنس اللطيف خلال فترة العزوبية.. لكنه عندما يفكر في الإقدام على الزواج.. فإنه يطلب ملاكا طاهرا.. فتاة لم يسبق لها أية معرفة بعالم الرجال!

داخل الأسرة نجد الأخ يفرض حظرا للتجول وحالة استنفار قصوى على أخواته البنات في علاقتهن مع الذكور.. بينما هو لا يجد أي مانع في أن يختال كالطاووس بِرُفقة فتاته في الشارع!

هذه المواقف المتناقضة.. و التي يحاول البعض إعطاءها مبررات أخلاقية.. تكشف في واقع الأمر حقيقة أن عقلية الرجل الشرقي القديم لا زالت جاثمة في لاوعي عدد كبير من أكثر الرجال ادعاءا للحداثة عندنا! لا زالت تخوننا الشجاعة أمام الخيار بين الانصياع للتقليد السائد أو المنطق الرصين.

رجل الأعراف وامرأة الأعراف يتقيدان بمظاهر وشعائر يَفخران بها لأنها تُشعرهما بنوع من الكرامة الاجتماعية دون أن يناقشا مدى صلاحيتها لهما وللآخرين أو احتمال ترتُّب عواقب سيئة عنها.

لازلنا نعيش أشكالا من العادات والتقاليد المثيرة للعجب. خُذ ليلة العرس مثلا، ما الذي يضطر الشاب الفقير أو متوسط الحال إلى صرف مجموع مرتباته لشهور أوسنوات في ليلة واحدة تاركا وراءه بحرا من الديون؟

أليس في ذلك تكليف يُحول انطلاقة الحياة الزوجية للعروسين الموعودة بالرخاء والهناء إلى حالة تقشُّف وكفاح مُستميت لرَد الديون؟ وما إن تمر السنة الأولى وتخِف الأعْباء حتى يتوجب عليهما الاحتفال بضيف جديد.. الطفل الأول!

بعض التقاليد وإن بدأت تقل بشكل ملموس نتيجة تغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية.. إلا أنها لا زالت مُعششة في الأوساط الأكثر فقرا وأمية. لازال بعض الآباء يمارسون سلطتهم في اختيار عريس لابنتهم وإجبارها على الارتباط به. هذه الضغوط تزداد إذا لم يتحقق للفتاة استقلال مادي.

الاهتمام المبالغ فيه بالحسب والنسب.. المهر الضخم.. كلها مظاهر تساهم في العُزوف عن الزواج.. وتتحول معها بعض حالات الزواج إلى اختيار من يدفع أكثر.. عملية تجارية يبرر بها بعض الآباء الحِرص على مصلحة ابنتهم..

بينما هم في واقع الأمر يَسْعون من حيث لا يَدْرون إلى كارثة في حياتها!

العلاقات العائلية عندنا على العموم متوطدة.. وهذا شيء جميل.. لكنها تتوطد أكثر من اللازم لدرجة أنها تصبح مُزعجة! بعض الأقارب يسمحون لأنفسهم أن يصبحوا ضيوفا دون أي سابق إنذار وإلى أجل غير مسمى.. دون أن يكلفوا أنفسهم صرف درهم واحد من جيوبهم!

أمثلة أخرى من التقاليد هي تلك المرتبطة بالخرافة. اللجوء إلى المشعوذين.. زيارة الأضرحة.. إحياء ليالي تحضير الجن.. كلها نِتاج طبيعي لاجتماع العدوين اللدودين.. الفقر والجهل.

هناك خطابات يومية تُحاول دَفعنا إلى التعامل مع كل ما هو تقليد وتراث كشيء أقرب إلى المقدس.. يجب الالتزام به والحفاظ عليه. لابد من الاعتراف بأن التقاليد كَكُل نِتاج

بشري قابلة للصواب والخطأ.. للنفع والضرر. هناك تقاليد جميلة يستحسن الحفاظ عليها كجِسْر يربط الأجداد بالأحفاد.. لكن هناك بالمقابل تقاليد تُكشِّر عن أنيابها لتُقيدنا بل وتخنُقنا. علينا أن نميز الصالح من الطالح في عاداتنا.. ونضع قيمة الإنسان و مصلحته فوق أي تقليد أوعُرف.. لأن الهدف هو الإنسان.. راحته.. سعادته.. حريته! وكل تقليد لا يخدم هذا الإنسان.. بل يخنقه ويحبسه في قفص مظلم من الطقوس الجوفاء.. يَجدر بنا أن نتمرد عليه.. يجدر بنا أن نُحرر عقولنا منه.. كما حرر الصينيون أقدام بناتهم من أربطة النبل الكاذب!

لستُ معكَ.. لستُ ضدكَ!

قد كنتُ قبل اليوم أُنكر صاحبي

إذا لم يكن دِيني إلى دِينه داني

فقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورة

فمرعى لِغزلان ودَيْر لِرُهبان

وبَيتٌ لأوثان وكعبةُ طائف

وألواح توراة ومُصحف قُرآن

أُدِين بِدِين الحب أنَّى توجَّهت

رَكائِبُه فالحب دِيني وإِيماني

المُتصوف مُحيِي الدِّين ابنُ عَربي

يحكى أن أحد المشاهير كان يحتفظ بِكُرة صغيرة يستعملها كلما أُثير موضوع التسامح. كان يحملها في يده ويسأل: ما لون هذه الكرة؟ فينظر إليها الشخص المقابل له ويرد: إنها سوداء. فيهز صاحبنا رأسه ويقول: «الجزء الذي أراه من الكرة أبيض». ثم يدير ذلك الجزء إلى محدثه ويضيف: «لا نستطيع أن نتفق قط إلا إذا كنتَ تعرف وجهة نظري وكنتُ أعرف وجهة نظرك!»

في حياة كل إنسان ضرورةٌ تفرض عليه التعايش مع الآخرين.. كلٌّ بمزاجه الخاص و رُؤَاه الخاصة. في ظِل عملية التعايش هاته.. نتفق أحيانا.. ونختلف أحيانا أخرى.. نُعجب ببعضنا كما نَنزعج من بعضنا.. نحب ونكره.. نعيش عمليات مد وجزر متتالية من مشاعر قبول الآخر ورفضه.

رفض الآخر يعني وجود اختلاف معه.. وقد سمى العَرب كل من يختلفون عنهم «أَعاجم» أي خُرس لا يَبين كلامهم.. كما سمَّى الإغريق غيرهم «برابِرة» أي مُتوحشين.. وعاش الزنوج أشكالا من العبودية والتحقير لا لِشيء إلا لاختلاف لون بشَرتهم.

الاختلاف شيء قد لا يقبله الإنسان بسهولة. كثير من الناس يفكرون بمنطق «إذا لم تكن معي.. فأنت ضدي!».. منطق لا يقبل أن الاختلاف هو واقع شئنا أم أبَيْنا. نُولد

بأجساد مختلفة.. نعيش ظروفا مختلفة.. نتلقى ثقافات مختلفة.. حتى بصماتنا مختلفة. كل إنسان هو شريط أصلي لا توجد منه أية نسخة على سطح الأرض. ليس غريبا إذن أن نختلف.. بل المدهش فِعلاً هو أن نتفق!

الاختلاف من صميم الحياة.. في الهند يعبدون البقر.. في صقيع الأرض يتبادل الإسكيمو زوجاتهم من باب الإكرام وحسن الضيافة.. وفي التِّبت يشترك الأبناء الذكور في زوجة واحدة. أعراف شَعب مُعين ومُقدساته قد تبدو في نظر شعب آخر منتهى الحماقة والجنون!

الأصل هو الاختلاف.. والاختلاف في أمر ما دليل على أن هذا الأمر ليس بالبداهة التي قد نظنها.. وإلا كان كل بشر العالَم اتفقوا عليه. في معظم الأحيان لا يستند البديهي إلى منطق رزين أو برهان ملموس بقدر ما يكون تعوُّداً لا واعِيا على ثقافة البيئة التي نعيش فيها. التشبع

بمنبع واحد للثقافة قد يعطينا اعتقادا خادعا ببداهة هذه الثقافة وخطأ ما سواها.. فننْجرُّ عندها إلى إساءة فهم الآخر وثقافته المختلفة.

« أُفضل أن أُفَنَّد على أن يُسَاء فهمي ».. هذا ما قاله الفيلسوف « كانط ».. إساءَة فهم الآخر هي الطريق الذهبي للتعصب.. العداء.. و الكراهية! و في ثورة الغضب، قد يتحول الآخر في نظرنا إلى شيطان في صورة إنسان.. يغيب عن أذهاننا أن في عالم البشر ليس هناك ملائكة وشياطين.. إنسان جيِّد وإنسان سيِّء.. هذا تقسيم بسيط و ساذج.. لكن الواقع أَعقدُ من ذلك.. الواقع أن الإنسان مخلوق رمادي اللون.. كأس يضمُّ مزيجا من الحليب والقهوة.. مجموع أشياء نُسميها حسنة وأشياء نسميها سيئة.

عندما نفتح نوافذ فكرنا على الآخر نكتشف آفاقا

جديدة لم تكن تخطُر على بالِنا.. عندما نفكر أن عابد البقر ما كان ليعبدها لو عاش في ظروف أخرى.. نُحاول الفهم أكثر من النَّقد.. نتعلم كيف نتعامل بمنطق «لستُ معك.. ومع ذلك لستُ ضدك».. ونتقبل أن الاختلاف لا يُفسِد لِلوُدِّ قضية.. عندما نتعلم النظر إلى جانِبَي الكرة.. آنذاك ستُصبح مواقفنا وأحكامنا أكثر نِسبية وأقل إطلاقية.. وبدل أن يكون الاختلاف مصدرا للخِلاف.. سيتحول إلى مَنبع للثَّراء الفكري والوجداني.

لا مَفرَّ من البَلل!

«كما أن القشرة الصلبة التي تحجب الثمر
يجب أن تتحطم حتى يبرز قلبُها من ظُلمة الأرض
إلى نور الشمس.. هكذا أنتم أيضا يجب أن تُحطم
الآلام قشوركم قبل أن تعرفوا معنى الحياة!»

جبران خليل جبران

تحكي الكتب الهندية القديمة قصة «بوذا».. هذا الأمير الذي عاش في الهند قبل الميلاد بخمسائة سنة. تبدأ القصة عندما قرر والده أن يُبقيه داخل أسوار القصر.. أحاطه بالخدم والجواري الذين يُلَبُّون له كل ما تشتهيه نفسه.. حتى لا يرى بوذا مشاهد البؤس المتربِّصة خلف أسوار القصر!

لكننا لم نَكُن لِنعرف اسم بوذا لو تحقق لوالده ما أراد.

فذات يوم فرَّ بوذا من القصر.. وكانت الصدْمة! لقد رأى بِأُم عينيه حُشود المشردين والجائعين والمتسولين.. مشاهد الألم الإنساني صفعَت بشِدة مشاعره الرقيقة.. فقرَّر التخلي عن حياة القصر والتَّرف والملذات.. لبِس ثوبا خشنا واتجه نحو الغابة في رحلة لاكتشاف أسرار الحياة وحِكمة الشر والألم في هذا العالم.

كثيرون هم الآباء والأمهات الذين يعاملون طفلهم مثل «بوذا» صغير.. يحاولون جاهدين حمايته من قساوة الواقع حِرصا على سلامته.. وبهذه النية الحسنة.. يكبر الطفل غريبا عن مجتمعه.. جاهلا به.. بعيدا عنه.. يُصبح الغزال بدون قرنين في وقت هو أحوج ما يكون إِليهما!

بالنسبة للفتاة.. الرغبة في الحماية أكبر.. والوصايا أكثر: لا تخرجي مع الرجال! لا تثِقي فيهم! لا تُسافري وحدك! لا لا لا... وتكبُر الفتاة.. خائفة.. ضعيفة..

ويأخذ الرجل في خيالها أشكالا خرافية.. تتأرجح بين الغُول.. وفارس الأحلام! وفي غَمْرة هذه الأوهام.. تتحول أول محاولة حقيقية لاكتشاف عالم الرجل.. إلى كارثة!

في عملية استكشاف الحياة.. لا يمكن فصل المراقِب عن الظاهرة.. محكوم علينا أن نخوض معارك الحياة بحُلوها ومُرِّها.. لا مَفرَّ من لعبة التدحرج بين الخطأ والصواب لاكتساب التجارب وصقل الشخصية الإنسانية.. الذي يسبح في البحر لا يمكنه الخروج منه دون بلل.. العيب من طبيعة الحياة وصميم جوهرها.. لأنه وليد الحرية.. والحرية تحتمل الخطأ والصواب. يقول المفكر «رالف والدو إمرسون»: «ما أكثر أخطائي! لو أنني سردتها ووصلتها لَكانت كافية لأن تغطي سور الصين العظيم. إنني ما زلت أُخطئ كل يوم لأنني ما زلت أتنفس وأتحرك وأعيش مع الناس».

جرِّبْ أن تُقنع طفلا بخطورة النار.. سترى أن أفضل وسيلة هي أن يكتوي بنارها! النصيحة ليست مُقنعة بقدر التجربة.. النصيحة هي خبرة الآخرين.. أما التجربة فهي خبرة الذات.. هي اكتشاف شخصي.. ولهذا فهي أكثر ترسُّخا وعمقا. إنك لا تستطيع إدراك مدى خوفك أو شجاعتك أو صبرك إلا في أوقات المحن والأخطار. الإنسان الذي أمضى أياما في ظلمة الكهف أكثر إدراكا لقيمة النور وأكثر اختبارا لمدى قوة تحمله للظلام. الشخص الذي لم يتعرض للإغراء لا يمكنه أن يختبر صدق ما يدعيه من عفة وفضيلة.

الأوقات العصيبة هي المِحَك الحقيقي لِذواتنا. لا نستطيع اختبار عمق صداقاتنا إلا في أوقات الشدة.. لا أستطيع أن ألمس تعلُّق حبيب العُمر ومدى حُبه لي إذا كنت ثريا وجميلا وفي أكمل صحتي.. ولكن عندما أقع في

أزمة مالية حادة أو يعتل بدني وأصبح ثقيلا صعب التحمل.. فآنذاك يمكنني أن أختبر عُمق محبته.

ولأن الحياة جميلة.. بكل ما تحمله من قساوة.. فإنها تستحق كل جهد يُبذل في سبيل الاستمتاع بها.. لابد من بعض المغامرة لاستكشافها. ما كان بوذا ليصبح حكيما لو عاش داخل أسوار القصر.. الحكيم لا يرفع أذيال ثوبه عن أوحال الحياة.. لأنه يدرك أن الحكمة لا تُلقَّن بقدر ما تُختبر. ولأن الاختبار قد يكون أليما.. فإن الحكيم يكتسب فضائل الصبر.. والصمود.. والتحدي.. ويتعلم أن الضربة التي لا تقصِم ظهره.. تُقوِّيه!

قُلْ كلمتك وامْشِ!

«إني أختلف معك في كل ما تقول.. لكن سأظلُّ
مدافعا حتى الموت عن حقك في أن تقول ما تريد!»

فولتير

«قل كلمتك وامش!» جملة شهيرة للمفكر نجيب الريحاني ودعوة جريئة لحرية الفكر والتعبير. لكن المتأمل للتاريخ سيجده مليئا بقصص أولئك الذين قالوا كلمتهم.. ولم يمشوا بعدها.. بل مشت أفكارهم عابرة السنين والأجيال. قبل حوالي 2400 سنة.. قال «سُقراط» كلمته في شوارع أثينا.. فقتلوه مسموما ومشى ليخلد في ذاكرة الإنسانية. وبعد «سُقراط».. كان السجن والتعذيب والقتل نصيب آلاف البشر الذين لا ذنب لهم إلا أنهم

يمتلكون عقلاً يفكر.. ولسانا يتكلم!

و إذا كان رجال من أمثال سقراط فضلوا مواجهة الموت على إخفاء أفكارهم، فإن ذلك يثبت مدى العلاقة بين الفكر والرغبة في التعبير عنه. الإنسان الذي لا يتفق مع بعض الأفكار أو الممارسات السائدة في مجتمعه من الصعب عليه إخفاء آرائه متى كانت مسيطرة عليه. شكل الانتقاد قد يتراوح بين محاولة التغيير الفعلي والنكتة الساخرة! وما دام العقل البشري لم يبتكر بعد آلة للتجسس على ما يدور في ذهن المرء من أفكار، فإن الإنسان في ظل الأنظمة الديموقراطية أو الديكتاتورية بإمكانه ممارسة عملية التفكير في حرية وبعيدا عن أية رقابة. لهذا فاستخدام عبارة «حرية التفكير» إنما يُقصد منها في الواقع «حرية التعبير».

حرية الرأي ليست مجرد ترف فكري أو متعة عقلية

تُمارس بعيدا عن المجتمع.. بل هي احتياج أصيل في الإنسان.. هي أوكسجين العقل.. الذي بدونه يختنق كل ما هو ذو قيمة في الإنسان. لهذا فالدفاع عن حرية الفكر هو دفاع عن حرية المجتمع.. حرية الإنسان!

لماذا يُقمَع الفكر؟

الأسباب متعددة.. منها المتعلقة بالإنسان كفرد.. ومنها المرتبطة ببِنْية المجتمع ومصالحه.

في الفيزياء يوجد مبدأ يُعرف بالقصور الذاتي.. هذا المبدأ يقضي بأن كل الأجسام تميل إلى الحفاظ على ثبات سرعتها البدْئية. هذا المبدأ يبدو أنه يسري كثيرا على العقل البشري الذي يميل إلى الحفاظ على نظامه الفكري الجاهز المقتبس من الأسرة والمجتمع. العقل الإنساني العادي يميل إلى حالة الكسل.. نظامه الفكري يستمده عادة من البيئة المحيطة به بنوع من القبول والتسليم.. ليربح في

المقابل شكلا من القبول في المجتمع.. ويصبح صاحبه إنسانا «طبيعيا».

هذا الإنسان قد تبدو له الفكرة الجديدة مجنونة وذات دوافع شريرة لا لشيء إلا لأنها مُرهِقة.. تطرح أسئلة مُقلِقة.. وقد تُؤدي به إلى أزمة أسس تنتهي بانهيار بنيانه الفكري. هكذا نرى مثلا كل جيل يدافع عن قيمه ويتهم قيم الجيل الجديد بالتمرد والحماقة!

الفكر الغير المألوف يبدو غير معقول.. مع أن الطفرات الكبرى في تاريخ البشرية كانت تحمل أفكارا جديدة. الإنسان المعقول ـ على حد قول «برناردشو» ـ «هو الذي يحاول التوفيق بين نفسه والمجتمع.. والإنسان غير المعقول هو الذي يحاول التوفيق بين المجتمع ونفسه.. لهذا كان كل تطور رهينا بِغير المعقولين!»

سبب آخر لمناهضة الفكر يكمن في تخوف السلطة

والطبقات المستفيدة من أن يؤدي الفكر الجديد إلى تغيير في الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تخدم مصالحهم.

قبل الثورة الفرنسية.. كان هناك جيل من المفكرين الذين أسسوا لمبادئها. أحد هؤلاء رجل اسمه «فولتير» سخَّر حياته للدفاع عن حرية الفكر والمعتقد. كان فولتير يكتب بقلمه وينفق من ماله مدافعا عن العائلات التي تعرضت للاضطهاد الديني من طرف السلطة الكنسية. في ذلك الوقت كان هناك قانون صدر في عام 1757 يقضي بإعدام المؤلفين الذين ينتقدون الدين. هكذا اضطر فولتير لكتابة رسائله بأسماء مستعارة لينجو من الموت.. وظلت عبارة «اسحقوا الخزي!» «Ecraser la crasse!» صرخة مدوية في وجه كل أشكال القمع والإذلال التي يُلحقها الإنسان بأخيه الإنسان. لأجل هذه الدعوة الجريئة

تعرض فولتير للسجن والجلد واتهم بالكفر. أفكار فولتير التي اضطُهد من أجلها شكلت فيما بعد إحدى أهم مبادئ الثورة الفرنسية التي يعتز اليوم بها كل فرنسي.

وكما جُوبهت مبادئ الثورة الفرنسية لكونها تمثل تهديدا لمصالح الطبقة الأرستقراطية ورجال الدين.. كذلك جوبهت الماركسية والاشتراكية نظرا لتهديدهما مصالح الطبقات البورجوازية.

وإذا كان اضطهاد الفكر من طرف رجال السلطة أو رجال الدين أمرا خطيرا.. فإن الأخطر في تحالفهما معا.. أي عندما يستند الدين إلى قوة البوليس وتستند السلطة في ممارسة القمع إلى تعاليم الدين.

كانت المسيحية في بدايتها دعوة للمحبة والتسامح والأخوة.. فضائل انطلقت لتجتاز الحدود حتى تصل الأمبراطورية الرومانية.. حيث لاقت انتشارا واسعا بين

الطبقات الفقيرة. كانت المسيحية فلسفة الفقراء ولسان حالهم في مواجهة ظلم وطغيان السلطة الحاكمة. هذه الأخيرة أحست بخطورة الوضع فانضمت إلى صفوف المسيحيين. نتيجة لذلك أصبحت المسيحية مالكة لزمام السلطة في روما.. فاستخدمها رجال الدين والحكام كسِلاح فعال لخدمة مصالحهم واستغلال الطبقة الكادحة. هكذا أصبح لرجال الدين سلطان اقتياد الخارجين عن تعاليمهم إلى محاكم التفتيش.. وتحولت الكنيسة إلى متجر لبيع صكوك الغفران للفقراء الذين توجه كل أملهم إلى حياة ناعمة في العالم الآخر بعد أن فقدوا كل أملهم في هذا العالم! خلاصة الأمر.. تحولت المسيحية من دعوة للتسامح والمحبة إلى سِياط يُجلد باسمها كل مخالف لتعاليمها.. أو بالأحرى تعاليم رجال الدين الذين تحولوا إلى رجال سلطة و بوليس.. فكانوا بذلك أول الخارجين عن

جوهر هذه التعاليم!

في هذه الظروف.. أُحرق «جيوردانو برونو» حيا لأنه قال بوحدة الوجود.. وحُوكم بعده «غاليليو» بالسجن لأنه قال بحقيقة يعرفها الأطفال اليوم وهي دوران الأرض! لنتخيل إذن ماذا كان سيكون عليه حال الحضارة الأوروبية اليوم لو فرضت المؤسسة الدينية على رجال من أمثال «إينشتين» و«فرويد» و«إديسون» أن يكون الكتاب المقدس المرجع الأساسي لبحوثهم؟ أكيد أن الكتاب المقدس مرجع لمن يدينون به.. لكن سيكون من السذاجة الاعتقاد أنه مرجع للعلوم والفنون والتقنيات الحديثة!

التاريخ الإسلامي بكل ما يحمله من الصور المشرقة لا يخلو أيضا من صور الاضطهاد الفكري والعقدي.. هذا الاضطهاد الذي مارسه العديد من الحكام في حق الأقليات الدينية أو حتى بعض الفرق الإسلامية والمفكرين الذين

كانت لهم توجهات مختلفة. يكفي أن نذكر على سبيل المثال مأساة «ابن رشد» في الأندلس بنفيه وإحراق كتبه بعد أن أذاع الخليفة «المنصور» منشورا يمنع الاشتغال بالفلسفة.

على أنه لابد هنا من الفصل بين تعاليم الدين وممارسات رجال الدين. لهذا نجد أن اعتلاء الدين للدولة في كثير من فترات التاريخ قد أضر بالدين نتيجة الظلم والقمع الذي مارسته السلطة الدينية.

الأصل في الإيمان الديني أن يكون نابعا من قناعة داخلية.. ولا يحق لأية سلطة خارجية أن تأمر الناس بالإيمان فيؤمنوا وإلا تعرضوا للعقاب! حرية الاعتقاد جزء من حرية الفكر.. وحرية الاعتقاد تعني أيضا حرية نشر هذا الاعتقاد بالوسائل السلمية.

في الأندلس.. كان المسلمون يسمحون للمبشرين

المسيحيين أن يقفوا على أبواب المساجد لدعوة المسلمين إلى المسيحية. هذا مثال رائع في التسامح وقبول حق الآخر في نشر فكره أيضا. البعض يعترض على مثل هذه الحرية بدعوى خطورتها على القيم السائدة وزعزعتها لعقيدة الناس. والواقع أن أصحاب هذا الرأي ينظرون إلى الناس كمجموعة من الأطفال القاصرين العاجزين عن تحمل مسؤولياتهم في القرار.. لهذا تتوجب حمايتهم عبر ممارسة الوصاية عليهم. أضف إلى ذلك أنهم يعبرون عن تناقض واضح عبر إعطاء أنفسهم الحق في نشر عقيدتهم مقابل نزع نفس الحق عن الآخر!

لابد من الاعتراف أن الحرية في مجملها ليست خيرا مطلقا.. وحرية التعبير كنوع من أنواع الحرية لابد أن تترتب عنها بعض المشاكل والأخطار.. ولكن ماذا لو صُودرت هذه الحرية؟ تبدو المسألة أشبه بقضية

تضمَّنه القِرطاس إذ هو في صدري

يسير معي حيث اسْتقلتُ رِكابي

وينزل إن أنزل ويُدفن في قبري

إخماد صوت فرد واحد على حد تعبير داعية الحرية «جون ستيوارت ميل» إنما «يضر بالجنس البشري.. بحاضره ومستقبله.. كما يضُر بِقامِعي الرأي أكثر من إضراره بصاحب الرأي. ذلك أنه لو كان رأي ذلك الفرد صحيحا.. لحُرم الناس بقمعه من فرصة تصحيح خطئهم.. ولو كان رأيه باطلا.. لحُرموا من فضل يفوق فضل تصحيح الخطأ.. ألا وهو الرؤية الأوضح للحق الناجمة عن صراعه مع الباطل!»

كم من كتاب أُحرق لما يحتويه من أفكار غريبة ثم عاد ليجد بعد ذلك مكانه بين أمهات الكتب. والعجيب أن نرى التراث الإنساني الذي عاش لمئات السنين يُحاكم في عصر الذرة والأقمار الصناعية. في سنة 1985 وقعت

محاكمة أشهر كتاب في الأدب العربي «ألف ليلة وليلة». شهر زاد وقفت في قفص الاتهام لِتُصادَر حكاياتها المثيرة التي كانت مصدر إلهام لمئات المبدعين من كل أرجاء العالم. الأصوات المطالبة بإخراس شهر زاد وسحب حكاياتها من الأسواق اكتشفت بعد أزيد من ثمانية قرون أن الكتاب يتضمن مشاهد جنسية واضحة!

عندما بدأ إحراق ألف ليلة وليلة في مصر، وجّه الكاتب مصطفى أمين هذه الصرخة المدوية في وجه أولئك الذين سمحوا لأنفسهم بتكبيل شهر زاد وإطفاء مصباح علاء الدين: «أنا أرى أننا لو أحرقنا ألف ليلة فيجب أن نحرق «أبو الهول» لأنه أحد آلهة قدماء المصريين.. ونحرق «أبو سمبل» لأنه لايجوز بقاء معابد وثنية.. ونحرق الهرم أيضا باعتباره معبدا يدفن فيه الموتى.. باختصار نقضي على تاريخنا!»

الحظر والتستر لا يحملان معهما إلا مفاهيم سرية ومشوهة.. والجنس كواحد من مواضيع الحياة المتنوعة.. هو ممارسة طبيعية كلما اجتهدنا للتستر في الحديث عنها كلما تحولت إلى مجموعة من العقد النفسية والاجتماعية. الكون هائل وشاسع.. والفكر الإنساني كان ولا يزال يستمد مادته من هذا الفضاء اللامحدود.. ولهذا فحالته الطبيعية هي التطور والتجدد المستمران. ولكن عندما يُحاط هذا الفكر بخطوط حمراء ويُوضع داخل سياج يمنع عليه تخطيها.. ويُفرض عليه أن يؤمن بمقولات جاهزة.. ويفكر بأنماط معينة.. ففي ذلك حكم عليه بالإعدام!

لم يُخلق الناس نسخا متشابهة حتى تتطابق أفكارهم.. بل عادة ما تحمل حياة الفرد الواحد فسيفساء من الاعتقادات والأفكار المتناقضة. الفكر الحر هو الفكر القادر على تجاوز ذاته باستمرار.. ومتى كان كذلك، فهو يعترف

للآخرين أيضا بهذا الحق.. الحق في أن يكونوا مختلفين.

وما دام الفكر الذي لم يخرج من ذهن صاحبه فكرا لا أثر له.. كعزف موسيقى بدون آذان صاغية.. فإن حرية الفكر تستلزم بالضرورة حرية التعبير.. حق كل إنسان في إبداء أي رأي ونشره مهما بدا غريبا.. شرط ألا يلجأ في سبيل ذلك إلى أية وسيلة من وسائل العنف.. وللآخرين بعد ذلك حرية القبول أو الرفض. الحرية الحقيقية ـ كما قال قاسم أمين ـ «تحتمل إبداء كل رأي.. ونشر كل مذهب.. وترويج كل فكر.»

والواقع أن تأكيد حق كل إنسان في حرية التعبير عن آرائه ومعتقداته لا يهدف إلى إبقاء الاختلاف في الآراء بين الناس إلى ما لا نهاية.. بل إن من أكبر مزايا حرية التعبير أن أكسبت البشرية العديد من الحقائق والآراء التي لم تعد محل خلاف وشك. الديموقراطية.. حرية الاعتقاد

الديني.. حقوق الأقليات.. حقوق الطفل.. تجريم العبودية والميز العنصري.. مبادئ قاومت لمئات السنين قبل أن تصبح اليوم من الثوابت و البديهيات التي لا تُنكرها إلا أقليات يُدينها المجتمع الدولي. ولا تزال أمام البشرية خطوات شاقة لترسيخ هذه المبادئ وغيرها.. لعلها تصل إلى ذلك اليوم الذي يحقق فيه الأحفاد ما عجز عنه الأجداد.. ذلك اليوم الذي عبَّر عنه الشاعر الروسي «إفتُوشنكو» قائلا:

سيَذكر أحفادُنا
بشعور الخجل المرير..
بعدما يقضون على الدناءة..
ذلك الزمن الرديء
حين كان الشرف البسيط
يسمى
جرأة!!..

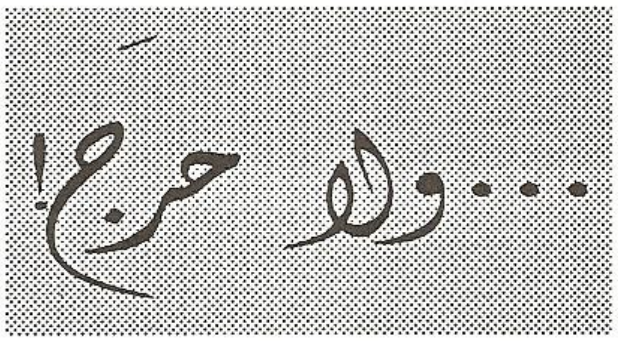

يقترحُ د. عزيز إفزارن عبر كتابه «...ولا حرَج!» أوراقًا تستحثُّ على التّفكير وإعادة النّظر في السّائد المتداوَل، وتدعو إلى مُساءلةِ مواقف وقضايا تحكمُنا فيها غالبًا النّمَطيةُ والنُّزوعُ إلى تكرار الموجود. الكتابُ أولُ إصدار للمؤلف، رغم تجربته في الميدان الصحافي، فضلاً عن اشتغاله في حقلَيْن مُتقاربَيْن يجمعُهما طابعُ التّجريد: الرياضيات باعتبارها مجال تخصّصه، والموسيقى التي له فيها إبداعات في طريقها إلى النُّور.

يتألّفُ الكتابُ من مقالات صِيغتْ بأسلوب سلِس، وقوة في الفكرة. بعضُها نشرها الكاتبُ في جريدة «الخضراء الجديدة» الصادرة بطنجة، تحت اسمٍ مستعار: «العزيز ابن أحمد».

الحُرية.. العدالة.. الحقيقة.. الطفولة.. الحُبّ.. وغيرُها من المواضيع والقضايا، طرحَها المؤلّفُ بحسّ نقدي، ساخرٍ أحيانًا، واختار لها أقوالاً مأثورة لبعض رُواد الفكر، لتُشكل عتبات لنصوصه.

قد تتباينُ ردودُنا بين متّفقٍ ومُختلف مع ما ورد من آراء في هذا الكتاب، لكنها تُجمعُ على كون الكاتب استطاع أن يُثير نقاشَنا حول العديد من اليقينيات التي نتبنّاها تُجاه المعيش اليومي، ونجح في طرحها بشكل فيه الكثيرُ من التّفرّد واللاّحَرَج!

د. حُسام المهزولي

فهرس

الحقيقةُ العارية! 5

هذا الطفلُ الكامنُ فينا 11

المساواةُ المُفْترَى عليها! 19

فرصةٌ اسمُها الحياة 25

كُنْ رجُلاً ولا تتْبعني! 33

عُيونُ الآخرين 41

كلامٌ في الحُبّ 49

من يَتبنّى فكرة التّبني؟ 67

تهديدٌ مُوجّهٌ للجميع! 77

عندما تُكشر التقاليدُ عن أنيابها 83

لستُ معك.. لستُ ضدك! 93

لا مَفرَّ من البَلل! 101

قُلْ كلمَتك وامْشِ! 109

الحقيقة عارية!
عُريها يُخجلنا.. نتجاهلها..
تخوننا الجرأة لكشفها..
نحاول سَترها ولو بورقة توت.
ومع الأيام.. نتعوّد عُريها..
مشاهد البؤس تعجز عن صدمنا..
نمرُّ على جراح الآخر بلا مبالاة..
لتبدأ فينا أعراض العجز .. و البرود.
لقد أصبحت الحقيقة عارية أكثر
من اللازم..
لدرجة أنها لم تعد
تُثيرنا!

إفزارن للطباعة
Ifzarne Impression

10 دراهم